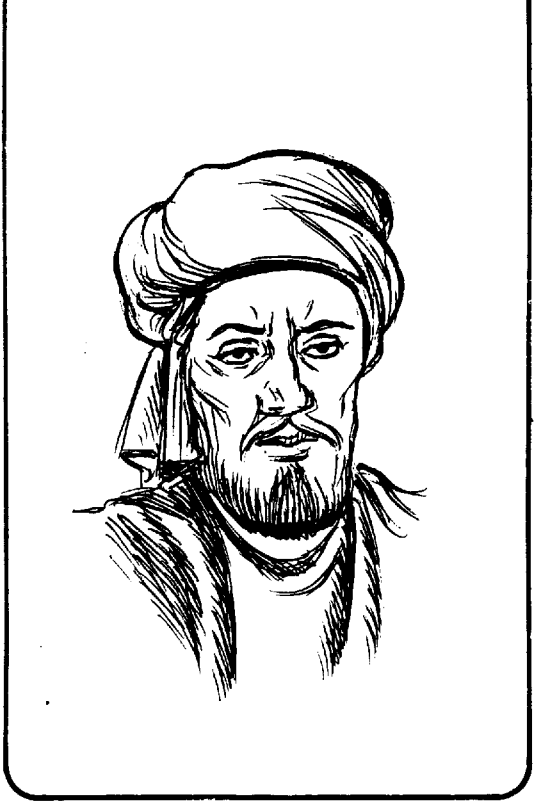

ابن خلدون
وفلسفة الذات

١٣٣٢ - ١٤٠٦

ابن خلدون وفلسفة الذات
(١٣٣٢ - ١٤٠٦)

المفكر العربى « أبو زيد عبد الرحمٰن محمد بن خلدون » ولد بتونس فى السابع والعشرين من مايو عام ١٣٣٢ وإن كان من أصل حضرميّ . وتوفى فى السادس عشر من مارس عام ١٤٠٦ . حفظ « ابن خلدون » القرآن وجوَّده فى صباه ، ثم تتلمذ على والده وعدد من علماء الفقه ، ولكن مرض الطاعون عاقه وهو فى الثامنة عشرة عن استكمال دراسته ، كما ضاق لهجرة علماء تونس إلى المغرب الأقصى هرباً من هذا الطاعون الجارف ، فاتجه إلى تولى الوظائف العامة ، وعُيِّنَ « كاتباً للعلامة » فى عهد « ابن تافراكين » ولما فر إلى المغرب عينه السلطان أبو عنان عضوًا فى مجلس « فاس » العلمى ، فعاود دراسة الدين والأدب وتفرغ لهما . ونتيجة للتقلبات

السياسية سُجن « ابن خلدون » عامين ، ثم أطلق سراحه ليتولى وظيفة « خطة المظالم» فى عهد السلطان أبو سالم ، وقد أداها بعدالة وكفاية ، ورحل إلى « غرناطة » وعمل سفيرًا لها بإشبيلية . فاستقرت أحواله المالية والاجتماعية مع زوجته وأولاده ، وعندما استرد « السلطان الحفصى » عرش تونس استدعى ابن خلدون وعينه فى منصب « الحجابة » أو رئاسة الوزراء . وضاق بالمناصب فتفرغ من جديد للتدريس والكتابة بعد أن عاد مرة أخرى إلى غرناطة .

وجاء « ابن خلدون » إلى القاهرة عام ١٣٨٢ فعمل بالأزهر ، ثم عُين فى منصب قاضى قضاة المالكية ، وصُدِمَ فى مصرع زوجته وأولاده وهم فى السفينة القادمة إلى الإسكندرية ، وانقطع لاستكمال مؤلفاته حتى تُوفى بالقاهرة ودُفن بها .

ولمُقدمة ابن خلدون قيمة عظيمة لدى علماء الاجتماع وغيرهم ، وهى ليست غير مجلد واحد من مجلدات « كتاب العِبَر » ، السبعة ، ولكنها تُعَدُّ من أهم أثاره وأشهرها ، فهى تحتوى على مضمون علم الاجتماع الذى وضعه ، وسبق فى إنشائه علماء الاجتماع كافَّةً ، كما تحتوى على تجديده لعلم التاريخ ، وعلم النفس التربوى ، والفقه المالكى ، فقد فسر الظواهر الاجتماعية وقنَّنها ، وعَرَّفَ العمران البشرى والعمران البدوى ، ونُظم الحكم ، ونشأة المدن ، والتجمع الإنسانى ،

ووجوه العيش والحِرف والمهن ، والأحوال الشخصية ، والظواهر الاجتماعية بشكل عام ، وربط بين الفرد والمجتمع ، وبين الواقع والبيئة ، ووضع أسس النقد التاريخى ، كما يقرر ذلك المؤرخ الإنجليزى « هيرتشو » الذى يعترف بأن ابن خلدون هو مجدد علم التاريخ بمنهجه العلمى الحديث ، الذى يبحث فى وقائع الزمان ، وتوضيح فكرة الزمان والمكان ، وصلة الإنسان بهما ، ثم كتابة « تاريخ التاريخ » بحيث يحمل الواقعة من إطارها الجزئى إلى إطارها الكلى ، ومن غمار الواقعة فى ذاتها إلى الواقعة فى إطار الزمان والمكان ، حيث تحكم مسيرة الإنسان من صنعه ، ولكنها فوق طاقته وإدراكه .

والمؤرخ الفذ هو من ينفذ ببصيرته إلى جوهر التاريخ ، كما فعل « ابن خلدون » ، ففاق أرسطو وأفلاطون وسان أوغسطين فى هذا المجال ، وحق له أن يكون ظاهرة سابقة لعصرها ، وهذا ما دعا عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين إلى تحضير رسالته عام ١٩١٧ فى باريس عن منهج ابن خلدون ، حيث قارن بينه وبين الفيلسوف « ديكارت » . كما تقدم عميد آداب السوربون « جورج دانى » عام ١٩٤٩ برسالة متميزة عن ابن خلدون « واضع علم الاجتماع ومجدد علم التاريخ » . أما الفيلسوف المعاصر « روجيه جارودى »

فقد أكد أنه أبْقَى من « مونتسيكو » فكرًا وفلسفة ، برغم التشابه الكبير بين العالِمَيْن الفَذَّيْنِ .

وفضلا عن علوم الاجتماع والتاريخ والنفس ، برز « ابن خلدون » فى تجديد أسلوب الكتابة العربية ومفردات اللغة ، وفى تجديد « فن الأوتوبيو جرافيا » أو ترجمة المؤلف لحياته ، وفى التفقه فى علوم الحديث والفقه المالكى .

والغريب حقًّا أن عبقريةَ « ابن خلدون » المبكرة لم يَعُقْ نُمُوَّهَا وتألُّقَهَا وازدهارَهَا اضطرابُ حياته الشخصية والأُسَرِيَّة .

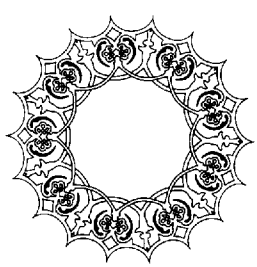

ديكارت
وفلسفة الشك

١٥٩٦ - ١٦٥٠

ديكـارت وفلسفـة الشـــك
(١٥٩٦ - ١٦٥٠)

فى آخر مارس عام ١٥٩٦ ولد رينيه ديكارت بفرنسا لأب كان يعمل بالسلك القضائى ، وأُمٍّ تُوفيت بعد مولده بسنة واحدة .. درس الأدب والعلوم الرياضية والقانون وتفسير الأحلام ، ولكنه اهتم أكثر بالفلسفة ، وكانت له آراء فلسفية عميقة فى الوجود كله بصفة عامة ، والوجود الإنسانى بصفة خاصة خلال رحلته الفكرية الطويلة المتوسطة العمر (توفى فى ١١ فبراير ١٦٥٠) من الشك إلى اليقين ، ومن النفس إلى الله ، ومن الله إلى العالم ، مستهدفاً الإنسان دائماً ، والمنهج والعلم ، وما وراء العلم .

أبرز كتب « ديكارت » عنوانه « المقال عن المنهج » . والمنهج الديكارتى هو أصل المعرفة ، أما جوهر المنهج ففى

التحليل والتركيب ، أى التبسيط والترتيب ، والاستدلال أو الاستنتاج المتعلق بالبصيرة والتهيؤ .. أما البصيرة فتصدر عن عقل متحرر من سلطان الحس والخيال والمعارف السابقة مهما كانت يقينة ، وأما التهيؤ فيتم بتجنب السرعة والتهور والتحلى بالصبر والأناة .. المنهج إذن هو أساس العلم ، وبالتحديد علم الطبيعة والهندسة التحليلية .

« أنا أفكر إذَنْ أنا موجود » تلك هى الحقيقة التى توصل إليها « ديكارت » بعد « تأملاته » فى الكون والإنسان سالكاً طريق الشك ، الشك فى كل شىء ، لكى يبدأ من الصفر أو اللاشىء لينتهى إلى اليقين ، اليقين الذى يقرره علم الطبيعة ، حيث لاوجود من عدم ، ولا موجود إلى عدم .. فالإنسان – ككل شىء – موجود ، أوجده الخالق ، ولأنه وجد فلا يمكن أن يفنى حتى بالموت ، أو برغم الموت ، فالجوهر هو أصل الوجود ، والجوهر لايفنى .. أما الخالق فهو الله ، الكائن الكامل الأزلى ، اللامتناهى القادر ، وهو أصل الوجود وسبب الوجود معاً .

الله إذن خير ، وطالما أنه خير فلايمكن أن تدعو أفعاله إلى الشك ، مثلما تدعو إلى ذلك أفعال الشيطان ، وإن كان هو الآخر – شأنه شأن كل شىء فى الوجود – من خَلْقِ الله .

وهكذا يوسع « ديكارت » من دائرة استخدامه للتفكير ،

فالشيء الذى يفكر هو الذى يشك ويفهم ويتصور ويؤكد وينكر ويريد ويتخيل ويشعر .. فإذا توقفنا عند « الشعور » وجدنا أنه شكل من أشكال التفكير ، كما يحدث فى الأحلام ، ذلك أن التفكير الذى هو ماهية الذهن ، يجعل الذهن فى حاجة إلى أن يفكر دائماً ، حتى أثناء النوم العميق ، وحتى لو لم تكن أفكارًا إرادية تماماً .

وفيما عدا ذلك يقسم « ديكارت » الأفكار – التى تشمل إدراكات الحواس – إلى ثلاثة أنواع مختلفة :

١ – الأفكار الفِطْرِيَّة .

٢ – الأفكار المُكْتَسَبة .

٣ – الأفكار المُبْتَكَرة .

وبرغم مخالفة « ديكارت » لفلسفة « أرسطو » فإنه قد استعان بمنطقه .. فهو يؤمن بأن الإنسان المخلوق هو صورة الله الخالق ، وبما أن الله قادر فإن الإنسان قادر أيضاً ، وإن كانت قدرته محدودة بالنسبة لقدرة الله المطلقة .. وهو على هذا يملك قدرة الإدراك والتصور ، كما يملك القدرة على القبول والرفض .. يدرك الكون أو العالم ويتصوره ، ويقبل الظواهر الطبيعية أو يرفضها .. فالله قد خلق العالم خلقاً مستمرًّا ولم يخلقه شيئاً فشيئاً ، بل خلقه على الصورة الأزلية ، بما فى ذلك ما كان وما سيكون .

الإنسان نفس وجسم ، فإذا كان الجسم يعيش بالغذاء

ويستقيم بالوقاية أو بالعلاج فإن النفس تعيش بالانفعال .. والانفعالات الرئيسية ستة : التعجب ، والحب ، والبغض ، والفرح ، والحزن ، والرغبة .

وعلم الأخلاق يستهدف السيادة على الانفعالات أو التحكم فيها بحيث يمكن النفس أن تميز بين ما ينبغى وما لا ينبغى ، وبحيث تَمْنَح بقدر وتَمْنَع بقدر ، وبقدر الإرادة المتوفرة والحرية المتاحة ، تحقيقاً لاتحاد النفس بالجسم ، وتحقيقاً للسعادة فى نهاية الأمر ، وهذا ما شرحه « ديكارت » فى كتابه « انفعالات النفس » .

ومع هذا كله لم يجد « ديكارت » مفرًّا من الإذعان لقضاء الله .. وقد كان مؤمناً بذلك ، راضيًا به ، سعيدًا له .

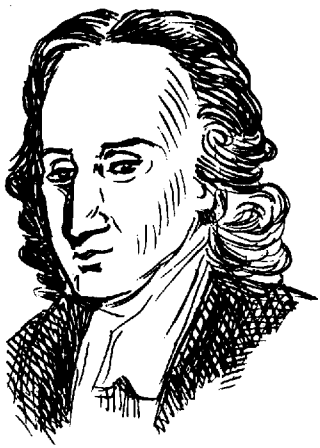

بسكال
وفلسفة العلم

١٦٢٣ - ١٦٦٢

بسكـــال وفلسفـــة العلـــم
(١٦٢٣ ــ ١٦٦٢)

ولد « بلازايتيين بسكال » فى التاسع عشر من يونية عام ١٦٢٣ بوسط فرنسا ، لأب قاض وأم بورجوازية .. وانتلقت الأسرة إلى باريس حيث تتلمذ « بلاز » على والده وهو بعد فى الثامنة من عمره ، وإن علم نفسه بنفسه ــ دون أن يلتحق بمدارس ــ بادئاً باللغات ، وخاصة اليونانية واللاتينية ، ثم الرياضيات التى تفوق فى كشف أسرارها ورموزها ، حتى أنه توصل – وهو بعد فى الحادية عشرة – إلى تفسير لطبيعة الأصوات .. واهتم بدراسة الفلسفة والأخلاق وعلم النفس وهو بعد فى الرابعة عشرة .. وعندما بلغ السادسة عشرة كان قد نبغ فى الهندسة ووضع مقاله « فى

المخروطات » مخالفاً به منهج « ديكارت » الذى استنكر جسارة « بسكال » وأنكر عبقريته المبكرة التى لم تمتد طويلاً ، فقد توفى فى الثامن عشر من أغسطس عام ١٦٦٢ قبل أن يبلغ الأربعين ..

فإذا كان « ديكارت » قد سعى إلى علم يجعل من الإنسان سيدًا على الطبيعة ومسخرًا لها فإن « بسكال » قد نجح فى تحويل العلم إلى آلة ، لأن الإنسان – فى تقديره – آلة بقدر ما هو عقل .. ولذلك اكتشف « بسكال » الآلة الحسابية ، وإن جاءت على عيوبها – وبعد كل هذه السنوات – فتحاً لعالم « الآلات الحاسبة » ، كذلك اكتشف « المثلث الحسابى » الذى يربط بين الحساب والهندسة .. أما فى « علم الطبيعة » فقد عنى « بسكال » بالتجريب والتطبيق ، وخرج بدراسات متميزة عن ثقل الهواء وتوازن السوائل و« الخلاء » مركزًا دائمًا على « ظاهرة الضغط الجوى » أو « الظاهرة البارومترية » .. كذلك ربط بين مبدأ توازن السوائل ومبدأ القوى الميكانيكية وَصِلَتها بالمسافات .

شكلت « خواطر » بسكال التى أخذ يُدَوِّنها خلال سنوات مرضه الأخيرة – والتى ظهرت فى كتاب بعد وفاته

عن تسعة وثلاثين عاماً فى أغسطس عام ١٦٦٢ – دفاعاً عن الدين ، ودعوة للإيمان ، من منطلق اليقين الرياضى والعدالة الإلٰهية ، والمحبة الصوفية ، بعد أن قسم العظمة إلى مراتب ثلاث : عظمة المادة ، كما عند الملوك والقادة ، وعظمة الحس والعقل كما عند الفلاسفة والعلماء ، وعظمة الحب والبصيرة ، كما عند القديسين والأولياء .. وكان « بسكال » قد اتصل بجماعة « بور روايال » وفلاسفتها : « سان سيران » ، و« جاتسنيوس » و« أرنو » واعتنق مبادئ هذه الجماعة ، وعمل على نشرها والتنظير لها فى « الخطابات الريفية » ، وأبرزها « أن الدنيا رمز للآخرة ، وأن الحياة رمز للروح ، وأن كل شيء من صنع الله وحده ، وأن الإنسان أثر من آثار الله ، ودليل على وجوده وإرادته وخلوده » .. وقد حاول « بسكال » مستمدًّا رؤيته من « القديس أوغسطين » الرد على سؤال الإنسان الخالد « ما الإنسان ؟ » فعرفه بأنه « رغبة أو نزعة إلى السعادة » فإذا كان هو مصدر هذه النزعة ، فإن الله هو غايتها ، وإذا كانت الحياة الدنيا هى غاية الإنسان الأولى فإن غايته الأخيرة لابد أن تكون الحياة بعد الموت أو الخلود – وليس الفناء – تشبهاً بالله ، ورغبة فى الاتصال والاتحاد به بعد معرفته ، وصولاً إلى السعادة الأبدية .. ولايتحقق ذلك إلا عن طريق الدين أو الإيمان ، وباتحاده بالفلسفة أو بالبحث الفلسفى .

وَوَحَّد « بسكال » بين العلم والإيمان ، فأكد أن « اللامتناهى » مبدأ سلبى ، فى العلم ، كما أكد على أن الحب هو مصدر الإيمان ، وهو مفتاح المشكلات الإنسانية كلها .. أو ليس الله فى جوهره « محبة » ؟!

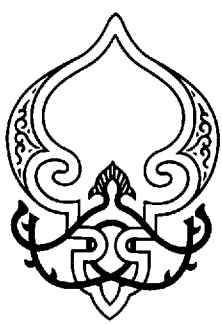

لـــوك..
والفلسفة الانسانية

١٦٣٢ - ١٧٠٤

لوك .. والفلسفة الإنسانية
(١٦٣٢ - ١٧٠٤)

على الرغم من تلقيه التعاليم الدينية الأرثوذكسية ، والدراسات الفلسفية الكلاسيكية ، حتى نال درجة الماجستير ، وفاز بمنصب تدريس هام – على الرغم من ذلك ، فإنه عاد إلى صفوف الطلبة بإرادته لدراسة الطب على نفقته ، والاطلاع على الكتب العلمية ، وخاصة فى مجال الطبيعة والكيمياء .

واهتم جون لوك – المولود فى التاسع والعشرين من أغسطس عام ١٦٣٢ بمدينة رنجتون ، بولاية سومرست البريطانية ، لأب من المحامين المغمورين – بالعمل الوطنى العام ، حتى شغل العديد من المناصب السياسية التى جعلت منه فى نهاية المطاف شخصية قومية مرموقة .. ومع هذا لجأ

إلى هولندا وتفرغ للفكر والكتابة خمس سنوات ، هى التى شهدت مولد نظرياته الفلسفية جميعها ، والتى انصبت على حرية الإنسان وحياته الاجتماعية ، كما ظهرت فى أهم مؤلفاته « مقال فى العقل الإنسانى » وفى مؤلفاته الأخرى « أفكار عن التربية » ، و « قيادة العقل الإنسانى » ، و« روح التسامح » ، و« الحرية السياسية » و« الحرية فى الدين » .

وانقطع لوك للبحث فى أصل المعرفة الإنسانية ويقينها ومداها ، كما حدد أسس الاعتقاد والرأى والاتفاق ودرجاتها .. وكان أول من طبق الاتجاه التجريبى والمنهج العلمى فى الفلسفة ، ولعب دورًا مؤثرًا فى حركة التحرير الأوربية ، وضحت ملامحه وظهرت نتائجه بعد ذلك .. فأخذ عنه روسو نظرية « العقد الاجتماعى » واستمد منه مونتسكيو فكرة فصل السلطات ، وآمن بعده فولتير بمبدأ الحرية ، وقد امتد تأثيره إلى الثورة الأمريكية حين نادى جيفرسون بالاستقلال والمساواة والديمقراطية .

وتمر المعرفة عند لوك بمراحل ثلاث : الإدراك الحَدْسى ، ثم الإدراك الحِسِّى ، ثم الإدراك اليقينى ، وهو إدراك يبدأ بالجزئيات وينتهى إلى الكليات ، على عكس ما كان سائدًا ، بحيث تعتمد المعرفة على العقل والتحليل والتجريب ، دون أن تقتصر على الفطرة والفطنة وحدهما .

أما الإدراك الحَدْسى فيؤدى إلى المعرفة بالوجود الذاتى ،

وأما الإدراك الحسى فيقود إلى المعرفة بوجود الأشياء ، وأما الإدراك اليقينى فهو الطريق إلى المعرفة بوجود الله ، وهذا على العكس أيضاً مما كان سائدًا .

وقد تركزت آراء لوك السياسية فى تقسيم السلطة المطلقة إلى ثلاث سلطات ، هى : السلطة التشريعية التى يقودها ممثلو الشعب المنتخبون ، والسلطة التنفيذية التى تتولى تنفيذ القوانين الإدارية والقضائية ، والسلطة الفيدرالية التى تمثل الحكومة المنسقة بين السلطتين السابقتين .

وتركزت آراء « لوك » التربوية فى حرية الفكر ، واستقلال التعليم العام عن التعاليم الدينية ، وإضافة عنصر الأخلاق إلى المواد النظرية والعلمية القائمة ، والاهتمام بتربية الأجسام إلى جانب تربية العقول ، وربط العلوم المختلفة بالحياة العملية .

وتركزت آراء « لوك » حول التسامح فى حرية العقيدة الدينية بلاتخويف أو اضطهاد ، حتى لايتحول الدين – أى دين – إلى سلطة فى أيدى رجال الدين أو رجال الدولة على حد سواء .

ومع هذا استثنى من تسامحه ، هؤلاء الذين ينبغى تقييد حريتهم فى الاختيار ، وهم الملحدون ، والخاضعون للسلطات ، وغير المتسامحين مع غيرهم .

وعندما يربط « لوك » بين الأفكار المجردة والواقع الحى ، يفرق بين الأفكار الحقيقية ، والأفكار الوهمية من ناحية ، وبين الأفكار الكاملة والأفكار الناقصة من ناحية أخرى ، وبين الأفكار الصادقة والأفكار الباطلة من ناحية أخيرة .

وأخيرًا توفى « جون لوك » – بعد أن ساءت صحته برغم اعتكافه فى الريف – يوم الثامن والعشرين من أكتوبر عام ١٧٠٤ ، عن اثنين وسبعين عاماً .

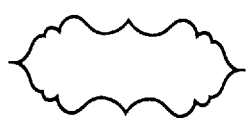

سبينوزا
والفلسفة الأخلاقية

١٦٣٢ - ١٦٧٧

سبينوزا والفلسفة الأخلاقية
(١٦٣٢ - ١٦٧٧)

ولد « بندكت دو سبينوزا » فى الرابع والعشرين من نوفمبر عام ١٦٣٢ بالعاصمة أمستردام سليل أسرة أسبانية عاشت فى البرتغال ، ثم فرت إلى هولندا فى نهاية القرن السادس عشر ، هرباً من محاكم التفتيش . رحل « سبينوزا » إلى لاهاى ليعمل بصناعة شحذ وصقل العدسات عام ١٦٦٣ ، ولكنه ألف فى الوقت نفسه أول كتبه « رسالة موجزة فى الله والإنسان وسعادته » ثم « رسالة فى إصلاح العقل » و« المبادئ الفلسفية لديكارت » و« التأملات الميتافيزيقية » .

حرمه اليهود برغم تمسكه بدينهم من الانتماء إليهم ، وفى الوقت نفسه مقته المسيحيون مقتاً شديدًا برغم تحمسه

لأخلاقيات دينهم .. واتهمه أصحاب العقيدة فى كلا الدينين بالكفر والإلحاد برغم فلسفته الأخلاقية التى تقوم كاملة على فكرة الله .

وعاش « سبينوزا » حياة بسيطة هادئة ، فلم يحب المال ، ولا المناصب ، وكانت مطالبه قليلة وعادية . وبسبب آرائه فى الأمور الدينية والسياسية كادت تعاديه الحكومة الإيرلندية لولا ليبراليتها المعروفة .

وتوفى « سبينوزا » وهو فى الخامسة والأربعين من عمره متأثرًا بمرضه الرئوى القاسى .

كتب « سبينوزا » قبل مؤلفه الرئيسى « الأخلاق » الذى نشر بعد رحيله كتابين هما : « رسالة فى السياسة اللاهوتية » ، و« رسالة فى السياسة » ، وفيهما يطالب بخضوع السلطة الدينية للسلطة السياسية ، منادياً بحرية الرأى فى جميع الأحوال .

أما « أخلاق » سبينوزا فلاتعترف بغير جوهر واحدٍ ، هو الله ، خالق الذهن والمادة ، والقادر وحده على إفنائهما ، لأنه اللامتناهى المطلق ، وأعلى فضيلة للذهن هى أن يعرف الله ويحبه حبًّا عقليًّا عظيماً ، وهذا لايتأتى إلا إذا كان فهم المرء لنفسه ولعواطفه كبيرًا . فالحب العقلى لله هو اتحاد الفكرة والعاطفة ، وليس شرطاً أن يسعى المرء إلى أن يحب الله مقابل

حبه له ، وهذا هو « إنكار الذات » إحدى ركائز فلسفة « سبينوزا » الأخلاقية .. إن حب الله هو الفضيلة ذاتها لأنه يؤدى إلى السعادة الروحية ، والإحساس بالنبل ، والقدرة الإنسانية .

ومن الركائز الأخلاقية عند « سبينوزا » الحب الإنسانى الذى يتغلب على الكراهية ، فهو يعتقد أن الكراهية تتزايد حين تكون متبادلة ، ويمكن أن يقضى عليها الحب ، فالكراهية التى يقهرها الحب تتحول إلى حب ، وحينئذ يكون الحب أعظم لو لم تسبقه كراهية . وهو ينطلق فى هذا من المبدأ المسيحى « أحب أعداءك » ، فعنده أن الخطيئة أساسها الجهل ، ولذلك فالله – بحسب المبدأ المسيحى أيضاً – يدعونا لأن « نصفح عنهم ، لأنهم لايعرفون ما يفعلون » ذلك أن الحياة التى تسيطر عليها عاطفة واحدة هى حياة ضيقة لاتتصف بالحكمة .. أما المحنة الخاصة فلاينبغى أن يخلعها المرء على العالم كله ، لأن الكل أبقى من الفرد .

ومن ركائز الأخلاق عند « سبينوزا » نسبية الخير والشر ، فنحن نسمى خيرًا ما نعرف تمام المعرفة أنه نافع لنا ، وعلى ذلك فالإنسان الخَيِّرُ خَيِّرٌ بالمعنى المألوف لهذه الكلمة ، فهو يعمل على أن يكون الآخرون أحرارًا وحكماء ، مراعياً فى ذلك أن الكراهية والنفور لايجديان فى معاملة الناس ، كما أنهما لايجديان فى علاقتنا مع الصخور والأحجار ، وهو يعلم أن

الشيء الوحيد الذى يستحق أن يسعى إليه هو المعرفة ، وأن تحصيلها فى صحبة الآخرين أفضل له من تحصيلها وهو منعزل .

ويرى « سبينوزا » أن العقيدة الدينية خير مادامت تعمل على الحياة الفاضلة ، وأن النظام الاجتماعى خير إذا حقق للمواطنين الأمن والأمان .. وطالما أن الناس يتفانون فى درجة الكمال ، كان لابد لبعضهم أن يطيعوا أولى الأمر منهم .. وهو مبدأ إسلامى نادى به « سبينوزا » لتكتمل فلسفته الأخلاقية التى تقوم على المبادئ الأخلاقية فى الأديان جميعاً دون تحيز أو تعصب ، لأن الهدف المبدئى والنهائى هو الحب ، حب الإنسان للإنسان ، وحب الإنسان لله .

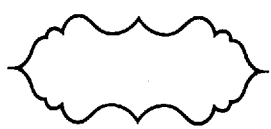

مونتيسكو.. وفلسفة اليقين

١٦٨٩ - ١٧٥٥

مونتيسكيو .. وفلسفة اليقين
(١٦٨٩ ـ ١٧٥٥)

هو الفيلسوف والمفكر السياسى والمصلح الاجتماعى «شارل دوسكوندا مونتيسكيو، المولود فى الثامن عشر من يناير عام ١٦٨٩ بقصر بريد بمدينة بوردو الفرنسية ..

درس القانون وورث عن عم له ثروته ومنصبه البرلمانى ولقب البارون ..

ومع هذا اتجه مونتيسكيو إلى الفكر الخالص والأدب الساخر.. كتب «رسائل فارسية» (١٧٢١)، فذاعت شهرته، التى ذاعت أكثر عندما وضع فلسفته الليبرالية، ومن أهم مبادئها «الفصل بين السلطات» التشريعية والتنفيذية والقضائية، وهو المبدأ الذى طبقته كافة الدول الديمقراطية ..

أما عام ١٧٤٨ فقد شهد انتهائه من أهم كتبه «روح القوانين» الذى أمضى فى تأليفه عشرين عاما كاملة .. وهو الكتاب الذى جاء نتاجا شاملا لفكره السياسى والاجتماعى والفلسفى، بل ونتاج فكر القرن الثامن عشر بأسره، ليس فى فرنسا وحدها، ولا فى أوروبا كلها، ولكن فى العالم أجمع ..

و«روح القوانين» الذى أحدث ثورة فى الفكر وتاريخ الفكر، هو نفسه الذى أشعل الثورة ضده، خاصة من رجال الدين وسطوتهم الطاغية فى عهده .. إلا أنه وجد من المؤيدين ما شجعه على مواجهة أعداء فكره وأعدائه، حتى أن الكتاب كان ينفذ فور صدوره كلما طبع من جديد، وقد وصلت هذه الطبعات إلى ثلاثين طبعة خلال السنوات الخمس الأولى لصدوره وقبل رحيله.

ومع هذا فقد اضطر لإصدار كتاب آخر فى أعقابه بعنوان «الدفاع عن روح القوانين» .. ولم يغفر له خصومه أنه كان مصابا بضعف بصره، وإصراره رغم كل هذا على مواصلة القراءة والكتابة والبحث، حتى فقد بصره تماما ..

و«روح القوانين» هو الإلهام المباشر والمصدر الأول لدستور ١٧٩١ الفرنسى ودساتير العالم الليبرالية، فهو يبحث فى أسباب إصدار القوانين فى كل بلد على حدة، فى ظروفه الخاصة به

وعاداته الأصيلة ومناخه وبيئته، وكل ما يتعلق به من ملابسات قد تختلف عن غيره من البلاد .. هذه الملابسات هى وحدها القادرة على صياغة هذه القوانين وتطويرها وتطبيقها باليقين ..

ولهذا اضطر إلى وضع عنوان فرعى طويل للعنوان الأصلى عن «الصلة التى ينبغى أن تربط القوانين بنظام الحكم فى كل دولة وتقاليدها ومناخها ...».

ومن مؤلفات مونتيسكيو التى تعد تأصيلا وشرحا وتوضيحا لمؤلفه العظيم «روح القوانين» حواره حول «الاستبداد» ومقالة عن «الذوق» وهمـا وغيرهما ما ساهم به فى «الانسيكلوبيديا» الشهيرة..

وهكذا أكد مونتيسكيو فلسفة «اليقين» عنده، تلك الفلسفة التى هدته ووجهته إلى كل ما كتب، ووضعته فى الوقت نفسه ورغم كل شىء فى مصاف المفكرين المتميزين عبر التاريخ فى الفلسفة والسياسة والعلوم الاجتماعية.

فولتير.. وفلسفة الإيمان

١٦٩٤ - ١٧٧٨

فولتير وفلسفة الإيمان
(١٦٩٤ ـ ١٧٧٨)

أديب فرنسا وفيلسوفها «فرنسوا مارى روويه» الملقب بفولتير، عاصر عصور اللويسات الثلاثة، لويس الرابع عشر، ولويس الخامس عشر، ولويس السادس عشر .. ولهذا، ولكثير غير هذا، أطلق عليه الشاعر «بول فاليرى» عبارة «المعاصر لكل العصور» ..

صحيح أنه رحل قبل اندلاع الثورة الفرنسية الشهيرة، ولكن الصحيح أيضا أنه كان من أبرز الذين مهدوا لها وأشعلوها ..

وتتلخص فلسفة فوليتر فى مذهبه «الديزم» أو «الألوهية» .. فهو يؤمن بأن الله قد خلق الكون وأتقن صنعه وقوانينه، كالساعة المتقنة الصنع التى لا تحتاج إلى إصلاح .. فمنذ بدء الخليقة، وكل شىء

يسير بنظام، وفى نظام، وفقا لهذه القوانين الثابتة .. ولهذا فهو ليس فى حاجة إلى التدخل الإلهى لإصلاحه .. أما ما يبدو لنا ظاهريا أنه شر، فهو فى الحقيقة شر جزئى وجد من أجل الخير الكلى.

يقول فولتير من خلال روايته «زاديج» أو «صادق» : أنا أحترم إلهى وأحب الكون .. الكون يحيرنى، فلست أستطيع أن أتصور هذه الساعة موجودة من غير صانع لها ..

إنها فلسفة عقلانية مصدرها الإيمان الذى يؤمن بوجود الله، ويعترف بأنه خالق البداية والنهاية .. ومالك الأرض والسماء.

وبسبب أفكاره سجن فولتير فى سجن الباستيل ونفى إلى انجلترا، ولكنه كان أيضا عضوا فى الأكاديمية الفرنسية ..

شارك فولتير فى وضع «الانسيكلوبيديا» أو الموسوعة الفرنسية، مع معاصريه من الفلاسفة والمفكرين ..

وكتب فى الفكر «رسائل فلسفية» (١٧٣٤) و«رسالة فى التسامح» (١٧٦٣) ..

وكتب مجموعة من الروايات القصيرة أبرزها «زاديج» أو «صادق» (١٧٣٨) و«كانديد» (١٧٥٩) ..

وكتب ملحمة كبرى بعنوان «هنريادة» (١٧٢٨) عن ملك فرنسا هنرى الرابع ..

وكتب حوالى خمسين مسرحية شعرية أهمها «أوديب» (١٧١٨)، و«بروتوس» (١٧٣٠)، و«زاييز» (١٧٣٢)، و«تانكرير» (١٧٦٠) و«إيرين» (١٧٧٨).. وقد عرضت جميعا على مسرح الكوميدى فرانسيز ..

عندما كتب الملحمة أطلق عليه معاصروه، «فرجيل الجديد» وأطلقوا عليه عندما كتب المسرح الشعرى «راسين الجديد» ..

وفى كل هذه الأعمال كان يؤيد الملكية، شريطة ألا تكون ديكتاتورية، ويدعو إلى الدين، شريطة ألا يكون متعصبا، ويدافع عن حرية الفكر، شريطة ألا تخرج عن نطاق العقل والحكمة ..

وقد دفن رفات «فولتير» فى حديقة الخالدين أو «البانتيون» إلى جوار جان جاك روسو، وإن سرق التابوتين ودفنا خارج باريس ..

ومع هذا فقد اعتادت الأوساط الثقافية والرسمية فى فرنسا، أن تحتفل بمولده كل مائة عام، احتفالا محليا وعالميا ضخما، يليق بالمفكر الكبير..

هكذا احتفلت فرنسا بمرور مائة عام على مولده، عام ١٧٩٤ ، واحتفلت بمرور مائتى عام على مولده، ١٨٩٤ ، وتستعد للاحتفال بمرور ثلاثمائة عام على مولده، عام ١٩٩٤ ..

هيوم..
والفلسفة الوضعية

١٧١١ - ١٧٧٦

هيوم .. والفلسفة الوضعية
(١٧١١ - ١٧٧٦)

فى أدنبرة بسكوتلندا ، توفى ديفيد هيوم ليلة الخامس والعشرين من أغسطس عام ١٧٧٦ ، وكان قد ولد فى المدينة نفسها ليلة السادس والعشرين من أبريل عام ١٧١١ .

نشأ هيوم فى أسرة متوسطة ، وتلقى تعليماً متوسطاً ، ولكنه شغف بالأدب ، وشغل بالفلسفة منذ صباه الباكر ، حتى إنه أكمل فكره وَكَوَّنَ فلسفته قبيل بلوغه الخامسة والعشرين ، عندما انتهى من أول وأبرز مؤلفاته على الإطلاق « رسالة فى الطبيعة البشرية » وهو فى فرنسا ، وإنْ نَشَرَ أجزاءه الثلاثة فى إنجلترا .

لم يَلْقَ الكتاب على أهميته الرواج الذى لقيته الكتب التالية

عليه : « مقالات فى الأخلاق والسياسة » ، و« مناقشات سياسية » ، و« محاورات فى الديانة الطبيعية » ، و« تاريخ بريطانيا العظمى » ، و« حكم أسرة تيودور » ، و« من القيصر إلى هنرى السابع » .

وقد أراد هيوم بكتابه هذا معالجة عيوب الفلسفات السابقة التى تقوم على الافتراضات غير اليقينية ، فوضع أسس العدد التجريبى أو عِلْم الإنسان ، من حيث الفهم أو العمر والانفعالات أو المشاعر والأخلاق والسلوك .. ويُعَرِّف الزمان بأنه الطريقة التى تحدث بها الإدراكات الحسية ، أما المكان فهو الطريقة التى ترتب وفقاً لها النقاط الملونة المحسوسة . ويتألف الاستدلال العقلى فى نظر هيوم من اكتشاف العلاقات ، وهذه العلاقات إما أن تكون بين أفكار أو مرتبطة فى الواقع بأشياء أخرى . وعلى هذا فإن البراهين الرياضية والاستدلالات التجريبية هى وحدها الواقعية ، وما عداها وَهْمٌ وسَفْسَطَة .. فإذا كانت البرهنة القاطعة مستحيلة ، فمن الممكن الاستدلال على سبيل الاحتمال ، والعلاقة التى تقوم عليها تلك الاستدلالات الاحتمالية هى علاقات العلة بالمعلول .

ويصل هيوم إلى القول بأن العقل والحس كليهما لاينتجان اعتقادنا فى الأشياء المادية ، مُقَلِّلاً بذلك من كفاءة العقل ،

ومبيناً أن الاعتقاد حالة نفسية ترجع إلى الغريزة ولاترجع إلى المنطق ، كما أن الانطباعات وخصائصها المحسوسة ، مثل اللون والدفء إنما تتوقف على إدراكنا الحسِّى لها ، ولايمكن أن يكون لها وجود مستقل .

ويرى هيوم أن العقل لايمكن أن يميز وحده بين الخير والشر ، لأنه لايؤثر على السلوك ، وهذه هى إضافته فى علم الأخلاق ، ويضيف رأيه فيما يتعلق بالتزامات العدالة كالوفاء بالوعود والولاء للدولة واحترام الملكية ، فيرى أنها تقوم على مواضعات اتفاقية تخلق التزاماً أخلاقيًّا يفرق بين الحق والباطل ويُغَلِّب العدل ، وهو تفسير ينتقد بشدة نظرية « العقد الاجتماعى » ، لأن الأخلاق تقوم فى نظر هيوم على المشاركة الوجدانية ، وهى دافع واهنٌ غير مضمون ، ولا هو متساوٍ لدى الجميع .

وقد تأثر بهيوم عدد من الفلاسفة فى مقدمتهم « عمانويل كانط » ، الذى اعترف بأن هيوم هو الذى أيقظه من سباته الدوجماطيقى ، أو جموده الاعتقادى .. كما يعترف الدكتور زكى نجيب محمود بأنه ينتمى إلى حركة هيوم الفلسفية ، تلك الحركة التى فتحت المجال عريضاً وعميقاً أمام التجريبيين العلميين المحدثين من فلاسفة هذا العصر ، وكل عصر .

روسو
وفلسفة العدالة

١٧١٢ - ١٧٧٨

روســـو وفلسفـة العدالــة
(١٧١٢ - ١٧٧٨)

« الاعترافات . العقد الاجتماعى . إميل » تلك هى المؤلفات الضخمة التى اشتهر بها المفكر السويسرى – الفرنسى « جان جاك روسو » ، ولكنه مثل غيره من مفكرى عصره ، وخاصة فولتير . كتب أيضاً فى العلوم والفنون والآداب ، كتب « هيلويز ، وأصل عدم المساواة بين الناس ، والإنسكلوبيديا » وبحث فى الموسيقى الحديثة ، وحديث عن العلوم ، والفنون ، وإن اعتبر – دوناً عن غيره – هذه الفروع الثلاثة من المعرفة مفسدة للأخلاق ، وإضاعة للوقت والفضائل ، ودليلاً على شقاء الشعوب وكبريائها الفارغة ، ولذلك وجه دعوته للرجوع إلى الحالة الطبيعية للإنسان الأول ، وسط الطبيعة وفى أحضانها ، والنزوع عن الترف

المفسد ، حتى لو تمثل هذا الترف فى العلوم والفنون والآداب ، وهى دعوة سبقه إليها كل من « مونتسكيو » و « ماريفو » .

و « روسو » الذى ولد فى الثامن والعشرين من يونيو عام ١٧١٢ بجنيف متسبباً فى موت أمه ، توفى فى الثامن من يوليو عام ١٧٧٨ بباريس ، ولأنه من أصل فرنسى رحل إلى فرنسا ، واستقر بها ، ولمع فيها ، بعد أن عاش فى سويسرا بعيدًا عن والده حياة شريدة ، بدون أن يدخل مدرسة أو يلتحق بعمل أو يتعلم مهنة أو حرفة ، ولكنه كان يلتهم الكتب قراءة وتعليقاً .

ويهتم بدراسة الموسيقى استماعاً وتحليلاً ، ويلتحم بالطبيعة عشقاً وهياماً ، وهى العناصر الثلاثة التى كونت شخصيته ، وصقلت موهبته ، وجلت عبقريته ، فجعلت منه فيلسوف عصره ، ومفكر زمانه .

عاش « روسو » فى الطبيعة وبالطبيعة وللطبيعة ، زاهدًا فى حياة النعيم : مأكلها ، وملبسها ، ومسكنها ، مُعبرًا عن أحاسيسه ومشاعره ، معتبرًا نفسه مركز الكون وبداية الوجود ، وجاعلاً من العقل خادماً متواضعاً للشعور ، فالخيال عنده يسمو على كل شىء .

وهكذا كفر بكلاسيكية القرن السابع عشر ليبشر

بالرومانتيكية التى سادت القرن التاسع عشر ، وعمل على نشرها هوجو ، ودى فينى ، ودى موسيه ، كمذهب يعبر عن الذات ، وينطلق إلى الحرية من الحرية وبالحرية .

هذا المذهب الجديد طبقة « روسو » فى روايته « هيلويز الجديدة » التى ظهرت عام ١٧٦٠ فى ألف صفحة بعنوان خطابات عاشِقَيْنِ يقطنان مدينة صغيرة فى سفح جبال الألب ، فأحدثت ثورة فى الأدب الفرنسى خاصة ، والأدب الأوربى عامة مضموناً وأسلوباً .

وفى كتابه « إميل أو التربية » عنى بتربية الأطفال فى مدينته الفاضلة ، بعد أن فقد الأمل فى إصلاح الكبار وصلاحهم ، بادئاً بالمساواة بينهم وتعميق مفاهيم العدالة الاجتماعية ، انطلاقاً من العدالة الإنسانية ، وتأسيساً على العدل الإلٰهى ، ثم الوطن وغرس حبه فى نفوسهم ، لدرجة إرضاع الأطفال هذا الحب مع لبن الأم تمهيدًا لجعل العالم كله وطناً لهم جميعاً .

وكما أعلن « روسو » حقوق الطفل – جائزًا على المرأة – فى التربية ، يعلن كذلك حقوق الإنسان فى العقد الاجتماعى ، وأول حقوق الإنسان الحرية ، ثم المساواة القائمة على إزالة الفوارق الظالمة بين الناس ، ذلك أن الملكية الخاصة والترف والإمعان فى الشهوات هى سبب كل التعاسات المكدسة التى تقع على رءوس ملايين الفقراء . أما قواعد الإصلاح التى

وضعها لإسعاد البشرية فترمى إلى هدم القديم المتهالك ، وإقامة نظام جديد يستلهم الطبيعة والعيش فى ظلها على طريقة القبائل الفطرية الأولى .

ولقد بلغ الأثر الذى تركته مؤلفاته فى النفس ذروته – فكرًا مُتَّقِدًا وأسلوباً وجدانيًّا – فى الاعترافات ، أصدق وَأَجْرَأ ما كتب فى هذا اللون من المذكرات ، أكثر حتى من « مالرو » و « سارتر » و« طه حسين » و « الحكيم » .

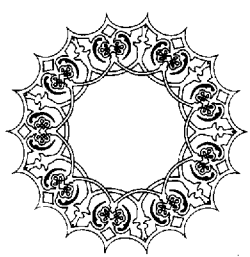

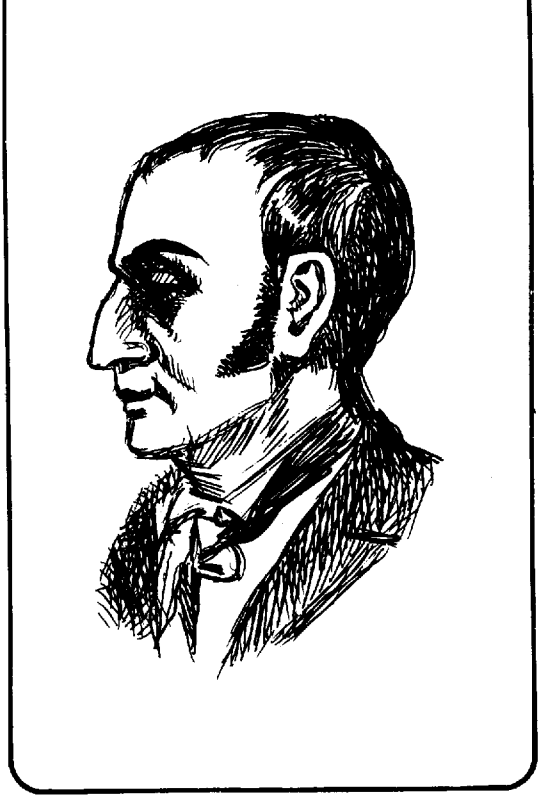

سان سيمون..
والفلسفة الاجتماعية

١٧٦٠ - ١٨٢٥

سان سيمون .. والفلسفة الاجتماعية
(١٧٦٠ - ١٨٢٥)

على الرغم من كونه ابناً للكونت ، وسليلاً لشارلمان وتلميذاً لدالمبير ، فإنه اشترك فى حرب التحرير الأمريكية ، وانتخب رئيساً لاتحاد الفلاحين ، وتنازل عن لقب الكونت ، وعمل مندوباً للبنوك ، ثم أقام مؤسسة للنقل الخاص حتى وقع انقلاب سبتمبر ١٧٩٧ ضد الملكية ، فصفى أعماله التجارية وعاد إلى دراساته المتعمقة بالكلية الفنية ، دارساً للعلوم الطبيعية والرياضية ، وخاصة بعد أن اختلف هو ومدام دوشتال مع نابليون وسياسته .. فلما ضاق به الحال عمل مصححاً فى مطبعة ، وبائعاً فى مكتبة ، إلى أن أصدر مجلة « الصناعة » ، ثم مجلة « السياسى » مع سكرتيره « أوجست كونت » الذى أصبح فيما بعد فيلسوف علم الاجتماع

الأول ، والذى أفاد منه كثيرًا فى تكوين فلسفته الاجتماعية .

وتبرز فلسفة « سان سيمون » الإنسانية والاجتماعية من ثنايا أهم مؤلفاته « بحث فى علم الإنسان » حيث يرى أن التقدم العلمى هو السبيل لتحقيق سعادة الإنسان ، على أن يكون هذا التقدم نافعاً للمجتمع الإنسانى ، ملائماً لنظمه ، متكيفاً مع تقاليده ، متفقاً وقيمه .. كما يرى « فى إعادة تنظيم المجتمع الأوربى » أن سعادة الإنسان تتمثل فى التطلع إلى المستقبل بالإفادة من سمات العصور السابقة ، وتحديد سمة العصر الحاضر .

إنه الفيلسوف الفرنسى « كلود هنرى دى سان سيمون » الذى فقد عينه اليمنى بعد أن حاول الانتحار بمسدسه ، نتيجة لفشل تنظيماته الاجتماعية الخاصة بالصناعة والطبقة العاملة والإقطاع الاقتصادى والدينى .. ولم تمض سنتان على هذه الواقعة حتى توفى « سان سيمون » بباريس ليلة التاسع عشر من مايو عام ١٨٢٥ ، وكان قد ولد بالعاصمة نفسها ليلة السابع عشر من أكتوبر عام ١٧٦٠ .

إن سمة عصره – القرن التاسع عشر – هى التنظيم ، بعد أن سيطر اللاهوت والفن والفكر والتحرر على العصور الماضية .. وهو إذ يهتم من الناحية الاقتصادية بجوهر الإنتاج ، إنما يتطلع إلى وضع القوة الإنتاجية فى المجتمع ، وتحديد نظام

الملكية الفردية والملكية الجماعية ، أى ملكية الدولة ، حتى لو أدى ذلك إلى مجموعة من التضحيات .

وعندما يبحث فى « تاريخ الإنسان » يقرر « سان سيمون » أن انتشار العلم والمعرفة هما إحدى السبل الفعالة فى تقارب الشعوب والمجتمعات وتوحيد الإنسانية كلها ، كما يقرر أن العلماء – كما يؤكد التاريخ – هم القادة فى أى مجتمع متطور .. فالفكر الإنسانى – ماديًّا وروحيًّا – هو الإسهام الحقيقى فى التقدم الحضارى .. فهو الذى أبرز علوم الفلك والطبيعة والكيمياء التى تطلبت قيام علم الإنسان ، هذا العلم الذى يستوجب تغييرًا ضروريًّا فى نظم السياسة والأخلاق والتعليم ، علماً بأن التقدم العلمى لن يؤدى إلى الظلم أو السيطرة أو قيام حكم استبدادى يعتمد على قوة العلوم ، كما جاء فى « آراء أدبية وفلسفية وصناعية » .

ويؤيد سان سيمون فى « السياسى » نظام الطبقات فى المجتمع الواحد ، حتى لاتسود طبقة واحدة .. على أن تكون العدالة الاجتماعية هى الفاصل والفيصل بين هذه الطبقات ، وبحيث تأخذ كل طبقة المكانة التى تفرضها فوائدها ومكاسبها ومنجزاتها لصالح المجتمع بجميع طبقاته .

ويطالب فى « الصناعة » بإنشاء علم للحرية ، فالتعلق بالحرية وحده لايكفى .. وإنما علينا ، إذا أردنا أن نكون

أحرارًا ، أن نحصل على حريتنا ولاننتظر حتى تمنح لنا . وهذه الحرية تعتمد على الصناعة من حيث هى وسيلة وليست غاية ، على اعتبار أن الصانع هو كل من يعمل فى سبيل التقدم والاستقرار وزيادة الإنتاج ، فالعالم والزارع والتاجر والحرفى والمهنى والصحفى ، كلهم من الصُنَّاع .. فهم يشكلون الطبقة أو الطبقات المنتجة ، وتحسين أوضاعهم لايتحقق إلا بإلغاء الامتيازات التى تتمتع بها الطبقات غير المنتجة .

ويبقى على العلماء والمفكرين والفنانين تعريف الطبقات الأكثر عددًا وجهدًا بدورها الاجتماعى والحضارى ، كما يبقى عليهم أيضاً المساهمة ، من خلال الاكتشافات والمخترعات والفنون والآداب والأفكار والآراء ، فى تهيئة المناخ الملائم والجو المبهج ، بعد طول حرمان ومعاناة ومكابدة ، من أجل حياة أنقى وأخصب وأفضل .